بضعة أسئلة لاحتفالٍ ما

مصطفى خضر

إنه الصوت الذي يذوي ، ويطويه ربيعٌ من رصاصٍ ،
فتبوح الغابة العمياء في سرب دمٍ ، ظلّ عصافير ،
وفي زهرة حبٍ أو حنينْ!
هذه الوردة في صحبتها النحل الذي يخفي التويجات ،
وهذا الطفل في صحبته الخبزُ ،
وذاك القمر الأسودُ يجري نحو جغرافيّة الحربِ ،
يضيء الشجر الأسودَ في بادية العُرْبِ ،
وفي مؤتمر الأسماكِ ترتاح الشباكْ!
فلماذا انتثرتْ أمسِ شفاهٌ ، قبلاتْ
ولماذا تتعرّى في العشيّات عصافيرُ ، وتهوي كلماتْ
ولماذا تتجلّى لنا في الحضرة أشياءُ ،
وتبكي أمهاتٌ ، شجراتْ . . .
هذه البذرةُ تهبط في ثلمٍ من الشّعبِ ،
وما زالتْ تهرّ الأغنيات
في احْتفالات الفم الأعمى ، ويخضرّ الرنينْ!
هذه البذرة صوتي أم نداء الآخرينْ!
إبتدأنا بانكسار الماء والأرض ،
وكانت شهبٌ تسقط في القلبِ ،
وتمتدّ سماء المئذنهْ
تدخل السرداب في تنهيدة النسوةِ ،
إذ ترتب صمت الفاتحينْ!
إنّه الصوت الدفينْ
صاعَ بالأمس ـ رماة الوقتِ ،
أم أن المهارى خلفت فارسها الميتَ لدى قيثارة الأمس!
ينا م العاشقُ المذعورُ في السنبلةِ!
الطّفلةُ في أغنيةٍ سرّيةٍ تسعى .
وتلك الخيل تذوي في رماد الأمكنهْ . . .
ما الذي ينهضُ في الداخلِ ؟

تنهارُ شبابيكُ من الخبزِ ، وتبكيْ سوسنهْ
وكوى الصبح الذي يشرقُ في زوجي سوادٍ
في خلاصات حليبٍ وطحينْ
كان يمتدّ مبيضات من البترول !
فاشْكرْ هذه الأرض وذاك النبضَ ،
ولتحمدْ ذراري التربة العمياء أرضاً مؤمنهْ
آه ! واحْمد هذه المملكة ـ الأقبية ، القنبلة الكافيةَ ،
المحكمة الراضية ، الدهر اللعين !
فبقايا الأرض تجري نحو جغرافيّة الجوعِ ،
تعرّينا : جوعاً وشعوباً . . .
وانتظرْ إن هبّتْ الريحُ شمالاً أو جنوبا
وانْتظرْ بين العبادْ
لحظةً اخرى ورؤ يا هينةْ!

* * *

ما الذي يحمله الوقت الدفينْ؟
صرخةٌ في ظلّ أنثى ، وهج نارٍ ،
وعصافيرُ عناقٍ لانهائي ، وركب من سهادْ!
ترحل الوردة في نهر ، وترتد حصاةْ
يرحل الشّعر ، ويرتد جروحاً مثخنهْ . . .
وتعودينَ ضفافاً وحكاياتٍ من الطينِ!
وما زلتِ هنا ترتعدينْ
وهنا تغتسلينْ
سنةً بعد سنهْ!!
إنهّم في حافّة الصمتِ يعودونَ ، ولا تقتربينْ .
يمتطون الغبرةَ الزرقاءَ ، في الصدر سيوفٌ صدئتْ ،
وخصور النسوة الهيفِ مرايا من غبارٍ
والسماواتُ قناديلُ من الديدانِ ،
والصوت النهائيّ : شظايا كلماتْ!

إنه صوت من البذرة يذوي،
إنه يخرج نحوي.
إنه يبحث عن سرّي الدفين.
وطلول النّاس ترعاها حراذينُ من الشّعرِ،
وتأوي في بقاياها خلايا وعظام ونباتْ.
فاعْبري في يرقات الموتِ،
هذا هيكلي العظميُّ أم فوّهةٌ عمياءُ، والوقت سجينْ.
يتآخى والدم القادم من باب لبابٍ في النوايا الحسنْة!
إنني أبحث عن نفسي، ونفسي من ترابٍ.
وأراها فرساً تجمحُ، والحزن الذي ينبت جهراً.
يمسح السرَّ الذي تحمله سنبلةُ الصلصالِ...
آهٍ! يا ليالٍ: تظلمُ القبلةُ في الوردةِ،
والنهر الذي يحبسه الماءُ يحلّ النارَ في صدري،
فمن أين يجيءُ السكْرُ، أو ينتبه الشّعرُ؟
(غداً يأتي انْتهازيون يسطون على النّارُ
وأقدام رعاة الكتب الصفراء، فرسان مرايا ضجة الإعلانِ
عن دينونة الإنسانِ ما زالوا هنا ينتشرونْ
يحملون الزّهر الأسودَ في صالات موت الشعرِ،
في عرس الجحيم الأمريكيِّ، وما زالوا هنا يحتفلونْ!)
وعصافيرُ من الحزن بعيدهْ
تعبر الأوراق، والشعر وحيدٌ في الممرّات الوحيدهْ
تتأوى ظلمٌ أو أضرحهْ
والذراري في البراري.
في سماء المذبحه
وتضمّين انكساري وانتصاري.
وأنا بين شهيدٍ وطعينْ!

* * *

كنتُ بالأمس هُنا أبحث عن نفسي الطريدهْ
ثم يعدو خلفنا ليلٌ مليءٌ بكلابٍ ومدى سوداءَ...
(هذي الريح سوداءُ، وهذي صفّة الأسماءِ سوداءُ،
وأنثى المطر المذكور تجري مذعنهْ
هذه الأفواجُ سوداءُ، وتلك الخوذ الخضراء سوداءُ،
وتلك الكائنات ارتعدتْ سوداء...)
هل ترتفع الراياتُ أم ترتفع الأضواءُ؟
والعذراءُ في نهدين مقطوعين تذوي قربَها الأرض
الشريدةْ!
إنني أبحث عنها، انها تبحث عني...
هل تقولين: هنا السرُّ، فلا ينكشف القهرُ!
هنا أدمنتِ نسج الصّوفِ في صمت الرماة الجوفِ...
تنمو في زوايا هيكلي العظمّي بلوى مزمنة!
إنني أبحثُ عنها تحت أقواس البلابلْ
ومصابيح عيون العابرينْ
انها تنمو عن الحدِّ، ولكن في هياكلْ
آه! يا بوصلة الفحم، ويا تسريحة الكلسِ،
ويا قيثارة الماء السجينْ -
ما الذي ينبت في أرض شعوبٍ وقبائلْ!
أي أوتارٍ من الطين أراها تتمرأى في سلاسلْ!
أي أغصانٍ هنا تثغو، وأوراقٍ من الثلجِ
تغطي الجسد الهارب في شعرٍ وعينٍ وجبينْ
بعد أن كان يقاتلْ!
إنه صوت من البذرة يخفي الزهرة الأولى،
ويخفي سمَّ أسنان الهواء الآدميْ!
أي صوتٍ كان في عينيك؟ مرّي في احتضاري الداخليْ
أي صوتٍ كان يسعى في الضمير البدوي
وهو في خيمته الأولى، وفي خيبته الأولى، سجين
يرقب الأعداء في رحلته الأولى، وفي رحلته الأولى
تضلين وحيدة...
تحمل الريحُ التي تصفرُ في قمحك أسمائي،
وفي ضجّة فخذيك يبوح المطر الأخضرُ
هل كنتُ قريباً منك؟ هل كنتُ بعيداً عنكِ؟
اسرابٌ من الأطفالِ حنجرتي حلّتْ، فهل تقتربينْ
من جنونٍ في نشيدٍ، من نشيد في جنون يتردّدْ!

* * *

إنه صوت من البذرة يصعدْ
وشعوبٌ تدخل التجربة:
الأمعا والأفواهُ ملأى، راضيهْ...
الفم المر، الدم المر، الغد العريان، اسودْ
والكوى البيضاء في مدرسة الإسمنتِ،
في كلس زقاق الروح كانت تتنهدْ!
فاعبري صمت اللقاحات الحزين

في صباحات العروش الخاويه!
أترى تنتظرينْ.
أن يعود الميتُ والنعشُ قريباً،
وقريباً يتهاوى العرشُ. من يحمله النَّعشُ غداً.
يقترب الشعبْ أم الجندُ، وهل تلك بقايا دولة أم ثورةٌ،
والصبح في الرؤيا يبينْ!
ما الذي يحملهِ المعدنُ إن لم يبدأ الممكنُ،
هل كنتُ أنا الركب الذي يظعن، أم كان المدى يذعنُ للقتْل،
وأفواجٌ من الموتى بلا قبرٍ. وهرّتني كلاب الملكِ
أم ضيعّت في نافذة الشكّ حضور النّهرِ أم ضاعَ اليقينْ!
ما الذي يفعله الشعبُ اذا لم تأذن الحربُ،
وهل كنتُ أنا القمح الذي يرحلُ في مملكة الجوعِ،
أم الأطفالُ في ضاحية النَّوْعِ
يهبّون عصافير من الأسئلة!
البركانُ هل يقبلُ، ام يحمله العرْبُ!
وهل كان الذي تنتظرينْ!
طائراً أم أجنحه
في سماء المذبحه؟
هل تناسخنا هنا حقاً؟.

وهل كان لنا الفتح، أم الشعب الذي يصحو،
وهل عادتْ اليكِ الأضرحه
في عشايا الفاتحينْ!

* * *

إنه الصوت الذي يذوي غداً
بين انكسار وانكسارْ
فاخرجي من جثّة الوقتِ،
اخرجي، واقْتربي باللحظة المشتعلهْ!
كان فينا الحاكمُ المحكومُ في القيد يخطّ المهزلهْ
ويربّي القنبله
لانفجار المطر الأخضر فينا،
لانفجار البذرة العمياء فينا،
لانفجار الثمر القادم فينا...

هكذا يكبُر في الأضرحةِ الأطفالُ،
أو يهوي رماد السَّالفينْ
هكذا كانتْ عصافيرُ تضيء الأسئلهْ
في عيون ووجوه وحضور واحتضارْ
فأرى الفتْحَ المبينْ!
أيّ فتحٍ ... أيّ رؤيا مقبلهْ!

حمص - سوريا

دار الآداب تقدم

الدكتور شاكر خصباك

ابن بطوطة

ورحلته